أثر البنية الصّرفيّة للمشترك اللفظيّ في التّفسير

د. رزان بنت يحيى خدام
أستاذ مساعد في الصّرف
جامعة الإمام عبد الرّحمن بن فيصل
المملكة العربية السعودية

موجز البحث

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على خير المرسلين، سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم، أمّا بعد:

فيتناول البحث أثر البنية الصرفيّة للمشترك اللفظيّ في توجيه المعنى القرآني، وقد درس العلماء والباحثون المشترك اللفظيّ لغةً واصطلاحاً، وتتبّعوا ألفاظه في القرآن والسّنّة وأشعار العرب، وكانوا في ذلك فريقان فريق أثبت وجوده، وفريق أنكره، ولكلّ حجّته ودليله، وقد وقع اختياري على العنوان؛ لأنّ أحداً فيما أعلم، لم يتطرّق إليه، وقد تعمّدت في البحث الابتعاد عن سرد ما ذُكر في الكتب والرسائل حول نشأة المشترك وأسبابه وتطوره و... ووجّهت الاهتمام إلى المادّة المدروسة علّها تمهّد لدراسات أكثر عمقاً وشمولية سائلة الله تعالى السّداد والتّوفيق.

يقع البحث في مطلبين ومقدّمة وخاتمة وفهرس للمصادر والمراجع؛ أما المقدّمة فللحديث عن معنى البنية الصرفيّة وأثرها في تغيّر المعاني والدلالات، ثم معنى المشترك اللفظيّ عند اللغويين والأصوليين، وجعلت المطلب الأول للحديث عن أثر البنية الصرفيّة للمشترك في الأسماء، أما المطلب الثاني فللحديث عن أثرها في الأفعال، ثم ختمت البحث بخاتمة اشتملت على نتائجَ وتوصيات.

(ISSN : 2536 - 9555)

المقدّمة

إنّ الحمد لله نحمده ونشكره على ما أنعم وتفضّل بأن جعلنا خير أمّة أرسلت للعالمين أمّا بعد:

فإنّ المعنى اللغويّ يعدّ مفتاحاً من مفاتيح التّفسير، يقول أبو حيّان: "هو علم يُبحث فيه عن كيفيّة النّطق بألفاظ القرآن الكريم ومدلولاتها، وأحكامها الإفراديّة والتّركيبيّة، ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التّركيب، وتتمّاتٍ لذلك"(1).

ولعلّ من أبرز ما تتميز به لغتنا العربية كون الصيغة الواحدة قد تشير إلى أكثر من معنى دلالي حسب سياقها، وذكر اللغويون متقدّموهم ومتأخّروهم ذلك في كتبهم بصور مختلفة من الدّراسات تحت مسمّى "المشترك اللفظيّ"، من هنا انطلق البحث؛ ليبيّن دور البنية الصّرفيّة للمشترك اللفظيّ في التّفسير؛ إذ لم يُعط حقّه من البحث عند اللغويين والأصوليين على حدّ سواء؛ فلم يلتفتوا إلى الدّلالة التي قد توجهها الصّيغة الصّرفيّة للمشترك اللفظيّ مع أنّ له أثراً قد لا يخفى في الحكم الفقهيّ والتّفسيريّ كما سنرى.

يعدّ المشترك اللفظيّ(2) من الظواهر اللغوية المعروفة في كثير من اللغات الإنسانية، وقد عني اللغويون العرب بجمع الألفاظ المشتركة في القرآن الكريم وكلام العرب وأشعارهم مدركين أنّ ألفاظ اللغة تختلف فيما بينها في ارتباطها بالمعاني، وأنّ كثيراً منها قد نشأ في أوقات مختلفة، وفي بيئات مختلفة. وكانت أقدم إشارة للمشترك اللفظيّ دون المصطلح قد وصلتنا من سيبويه (اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين)(3). أوّل تعريف للمشترك كمصطلح واضح نجده عند ابن سيده(4) "اسم مشترك تشترك فيه معان كثيرة كالعين ونحوها، فإنه يجمع معان كثيرة". وقد عرّفه المحدثون، منهم د.توفيق محمد شاهين(5) بقوله: (هو ما اتحدت صورته واختلف معناه، على عكس المترادف).

وقد اهتم الأصوليون بالموضوعات اللغويّة؛ لأنّ لها مساساً بمسائل الفقه وأصوله، فدرسوها من خلال النصوص القرآنيّة والشرعيّة، مما أكسب مباحثهم سمات

عمليّة واقعيّة. والمشترك اللفظيّ واحد من هذه المباحث التي كان لهم فيها آراء متعددة؛ فهو عندهم: "اللفظ الواحد الدال على معنيين فأكثر على السواء عند أهل تلك اللغة"(6).

وفي موضع آخر عرّفه البزدوي في كشف الأسرار بأنه "اللفظة الموضوعة لحقيقتين مختلفتين أو أكثر وصفاً أولاً من حيث هما مختلفان"(7).

وقد اشترط الرّاغب الأصفهائيّ في مقدّمة التّفسير(8) للقول بالاشتراك أن يستوي اللفظان في ترتيب الحروف وعددها وحركاتها، ويختلفا في المعنى. كما أشار إلى مسألة وجوب الاتّفاق في تقدير البناء الصرفيّ للألفاظ المشتقّة التي تشترك بعض صيغها في بناء واحد؛ وذلك مثل اشتراك صيغة اسم الفاعل واسم المفعول في نحو كلمة (المختار)، واشتراك صيغة المفرد والجمع في مثل (هجان) كما في: "ناقة هجان"، و"نوق هجان"، فهذا كله عنده من المشتق لا من المشترك لاختلاف تقديرهما.

ونلاحظ ممّا سبق أن المشترك لفظ واحد دلّ على حقيقتين، وأنّ المعاني مختلفة ابتداء؛ فألفاظهم التي نقع عليها في كتبهم ألفاظ متّحدة في بنائها الصرفيّ اتّحاداً تامّاً، مختلفة في معانيها لاختلاف البنية الصّرفيّة الصّوتيّة، لكنّهم اختلفوا حول اللّفظ الّذي لا يظهر المراد منه إن كان المشترك يُحمل على المعنيين معاً أو على جميع معانيه بإطلاق واحد.

عُرّف الصّرف بأنه "علمٌ بأصول يعرف بها أحوال أبنية الكلم التي ليست بإعراب"(9)، إذن فهو يدرس الأبنية بأنواعها المختلفة، ويبحث في أحوالها، وقد حدد علماؤنا مادته وهي الأسماء المتمكنة والأفعال المتصرّفة، أمّا الحروف وشبهها فلا تخضع للصّرف.

من المعلوم ابتداء أن الاشتقاق الصغير(10) وسيلة من وسائل لغتنا في صوغ الأبنية، حيث تصاغ على هيئة مخصوصة للدّلالة على معنى عام كليّ؛ كاسم

(ISSN : 2536 - 9555)

الفاعل واسم المفعول... وغيرهما من المشتقات، فهذه كلّها أبنية محدّدة، ولكلّ بنية معنى، وكلّ عدول من صيغة إلى أخرى سيصحبه عدول في المعنى.

ومما يؤخذ على الدّرس الصرفيّ أنّه بقي قاصراً على بعض الصّيغ المشهورة التي نجدها مكرورة في معظم الكتب قديمها وحديثها؛ إذ ثمّة صيغ صرفيّة لم يُلق لها الدّارسون بالاً إلى وقت قريب، ولعلّ من أبرز من تعرّض لمعاني الأبنية في العصر الحديث الأستاذ الدّكتور فاضل السامرائيّ؛ إذ تتبّع الأبنية ودلالاتها من خلال الموازنة بين النصوص.

من هنا سيقف البحث على الألفاظ المتّفقة في البنية الصرفيّة، المختلفة في المعنى، معتمدة على أمثلة من الأسماء والأفعال– وهي التي تخضع للتّصريف– مستعينة في استقراء أكثر مادتي على كتاب (ما اتّفق لفظه واختلف معناه) لابن الشجريّ (ت1148هـ). متّبعة المنهج الوصفيّ، إذ سأتناول البنية الصّرفيّة للاسم أو الفعل بالوقوف على وزنهما ابتداء، ثمّ على دلالة البنية الصّرفية للكلمة المدروسة كما ذكرها علماؤنا، واضعة إياها في سياق الآية للوقوف على مدى توافقها مع تفسير المفسّرين واجتهاد الفقهاء، متسائلة إن لعبت البنية دوراً في تقوية المعنى وتوضيحه، أو في تأكيد الحكم الفقهيّ، ملوّنة دراستي بالوقوف أحيانا على معنى صوت الحرف في الكلمة المدروسة لأقف على الانسجام بين معنى صوت الحروف ومعنى الكلمة، وبالتالي الحكم على مدى استفادة علماء التّفسير من معاني المشترك اللفظيّ في تفسيرهم واستنباط أحكامهم.

المطلب الأوّل

أثر البنية الصّرفيّة للمشترك في الأسماء

تعبّر الأسماء في اللغة العربيّة عن معظم الوظائف النّحويّة. والأسماءُ المقصودة بالتّصريف والاشتقاق عند التّصريفي هي الأسماء المتمكّنة لا الأسماء المبنية، وتكون بنية الاسم المجرّد ثلاثيّة أو رباعيّة أوخماسيّة، وقد يصل الاسم بالزّيادة إلى سبعة

أحرف. إذن لكلّ اسم متمكّن بنيةٌ صرفيّةٌ تتعاورها دلالات مختلفة، تخدم النّص في النّهاية.

وقد يكون الاسم جامداً أو وصفاً؛ أي مشتقّاً، ويعرّف الاشتقاق بأنه: "نزع لفظ من آخر بشرط مناسبتهما معنى وتركيباً، ومغايرتهما في الصّيغة"(11). وهو من أكثر الأدلّة على حيويّة اللغة العربيّة وقدرتها على توليد ألفاظ جديدة بمعان جديدة في السّياق قد تكون مشتركة أو متضادّة أو مترادفة.

وسأتناول البنية الصّرفيّة للأسماء المشتركة بالوقوف على وزنها ابتداء مع ملاحظة إن كان الاسم: مجرداً أو مزيداً، جامداً أو مشتقّاً، معرفة أو نكرة، مذكّراً أو مؤنّثاً، مفرداً، أو مثنّى، أو مجموعاً، ثمّ أقف على دلالة البنية الصّرفيّة للاسم المدروس واضعة إياها في سياقها من الآيات للوقوف على مدى توافقها مع تفسير المفسّرين واجتهادهم.

وقد اخترت للدراسة ثلاثة أسماء، هي:

1- **المُهْطِع**(12)

المهطع في قوله تعالى: {مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ}(13) معناه المسرع الخائف، يقال أهطع إذا أسرع خائفاً، لا يكون إلا مع خوف.

والمُهْطع في قوله تعالى: {فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ}(14) هو المقبل ببصره على الشيء لا يزايله.

ذكر ابن الشجري في كتابه كلمة (مهطعين)، وقد ورد في موضعين من القرآن الكريم بصورتين مختلفتين لبنية صرفيّة واحدة، الموضع الأول حكى صورة مستقبليّة، والثّاني حكى صورة ماضويّة.

الصّورة الأولى: (**مُهْطِعِين إلى الدّاعِ**):

(مُهْطعين): مُفْعِلين، اسم فاعل من الفعل (أهطع، يُهطِعُ)، وهو اسم ثلاثيّ مزيد بحرف واحد هو الهمزة، والزّيادة هنا للتّعدية. وزيادة المبنى كما نعلم تحمل زيادة في المعنى؛ وتدلّ صيغة اسم الفاعل هنا ضمن سياقها على الحدث وعلى الذّات التي

(ISSN : 2536 - 9555)

قامت به، وهذا الحدث كما في التّفسير(15) سيكون في المستقبل؛ أي (يوم القيامة)، وهو واقع لا محالة إذ ستسرع هذه الفئة من الناس مقبلةً خائفة نحو الدّاعي الذي هو (إسرافيل) عليه السّلام.

وقد عُدل عن الفعل المضارع (يهطعون) مع دلالته على المستقبل إلى اسم الفاعل (مُهْطِعين)؛ لأنّ الأمر لابدّ متحقق ثابت، وقد حذفت الهمزة من الأصل (مُؤهْطِعين) فراراً من ثقل اللّفظ.

وبالعودة إلى معجم مقاييس اللغة(16) نجد أنّ الجذر الثلاثي (هطع) تُستخدم للعاقل، فنقول (هطع الرّجل ببصره على الشيء: أقبل)، أما مع زيادة الهمزة (أهطع) فتستخدم لغير العاقل (أهطع البعير: صوّب عنقه منقاداً، وبهذا يكتمل لدينا المعنى التالي: من لا يُعمل عقله في الدنيا سيكون حاله في الآخرة حال البعير؛ لذلك كانت صيغة **(أفعل مُفْعِل): (أَهطَع مُهْطِع)** أنسبَ في وصف حالهم التي سيؤولون إليها.

وقد لعب صوت(17)(الهاء) باهتزازاته العميقة دوراً في الإيحاء باضطرابهم النّفسيّ، وقد اعتراهم الحزن واليأس والذّلّ، وجاء صوت (الطّاء) الشديد دالّاً على القطع بهذه الذّلة والمهانة، وتبعه صوت (العين) بما فيها من شدّة وصلابة، ثمّ صوت حرف (النّون) منبعثاً من الصّميم معبّراً عن قوّة الألم وعمقه، كيف لا! وقد انتهى كلُّ شيء؛ إذ لن يُقبل منهم عُذْر ولا صَرْف.

<u>الصورة الثانية</u>: (**فمالِ الذين كفروا قِبلك مُهْطِعين**):

مُهْطعين: على وزن مُفْعِلين، اسم فاعل من الفعل (أهطع) وهو اسم ثلاثي مزيد بحرف واحد هو الهمزة– كما ذكرنا سابقاً– ولو وقفنا على الصورة التّخيليّة للفظة "مُهطعين" ضمن سياقها في قوله "فما للذين كفروا قبلك مهطعين" لوجدناها دالّة على ثبوت وصفهم في الزمن الماضيّ ودوامه فيه، وهو هنا أبلغ في الوصف من استخدام الفعل (أهطعوا أو يهطعون) بدلالته على الحدث والزّمن.

وقد ورد في التّفسير(18) أن المشركين كانوا يحتفون حول النبيّ– صلّى الله عليه وسلّم– حلقاً وفرقاً فرقاً، يستمعون ويستهزؤون بكلامه، فنزلت الآية

(مهطعين...)؛ أي مسرعين حولك مادّي أعناقهم إليك، مقبلين بأبصارهم عليك، ونرى هنا دقّة الصورة الحسّية الحركيّة المختزلة لحال المشركين.

من هنا نرى أن الجملة التي أخبرنا فيها الله تعالى عن حال المشركين في الآيتين {فمال الذين كفروا قبلك مهطعين} ، {مهطعين إلى الدّاعي} دلّت على أن من قام بالحدث، صار هذا الحدث وصفاً له سواء في الزّمن الماضيّ، أو في المستقبل.

2- **الطائر**(19):

واحد الطير. وفي التنزيل {وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ}(20) فهذا ممّا جُمع فيه (فاعل) على (فَعْل) كـ راكب وركبْ، وصاحب وصحب. قال تعالى: {يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ} وقال: {وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ}(21).

والطائر: عمل الإنسان. قال تعالى جدُّه: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ}(22). (الطائر) على وزن الفاعل، وهو اسم ثلاثيّ مزيد بحرف واحد هو الألف بين الفاء والعين، مفرد، مذكّر، صحيح الآخر، وقد اختلف معنى الآية باستخدام هذه البنية الواحدة على صورتين:

الصورة الأولى: {**وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ**}:

(الطائر) في هذا الموضع، اسم جنس جامد يدلّ على ذات، منقول من المشتقّ على صيغة اسم الفاعل، وهو مفرد، ويجمع على (طَيْر): (فَعْل)، كما في قوله تعالى: (يا جبال أوّبي معه و**الطير**). ويجمع على (طيور): (فُعول). وقد اتّفق المفسّرون على أنّ الله تعالى جعل للمشركين عقولاً ليعقلوا بها أمرَ الرّسول عليه الصّلاة والسّلام كما جعل للدّوابّ والطّير أفهاما، ويرى الزمخشريّ(23) أنّ في ذلك دلالة على عظم قدرته وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس، وهو حافظ لما لها وما عليها.

وقد جاء وصف "الطّائر" بصيغة الجملة الفعلية (يطير) لأنّ التّجدّد الذي تحمله الصّيغة، يُشعر بالتّجدّد والاستمرار في المعنى، وبذلك يرتفع احتمال المجاز الذي يحتمله "طائر" لو لم يُوصف.

(ISSN : 2536 - 9555)

الصورة الثانية: **وَ{كُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ}**:

أمّا (**الطّائر**) هنا فهو اسم جنس جامد يدلّ على معنى، وهو عمل الإنسان، فيكون معناه دالاً على المصدر وهو (العمل). وقد جاء مفرداً لا جمع له من لفظه، أما دلالته فتُجمع على أعمال.

فبنية الكلمة ضمن سياقها لا تحتاج إلى جمع؛ لأن المصدر تنضمّ فيه كلّ المعاني؛ وقد جاء في التفسير(24): أن جميع ما يلقى الإنسان من خير أو شرّ مكتوب عليه ومقدّر في علم الغيب، وقد أُلزم حظّه وعمله ومكسبه في عنقه، فعبّر عن الحظّ والعمل؛ إذ هما متلازمان بالطّائر، وجاء اختيار العنق دون اليد؛ لأنه محلّ الزينة حال الخيرية، ومحلّ للغلّ حال الشّرّ.

وقد لعب صوت حرف الطّاء(25) بدلالته على الضخامة والعلو والاتّساع دوراً في استحضار الصورة الذهنية التّخيّليّة للطائر بصورتيه الدّالتين على الذات وعلى المعنى. وربّما كانت صورة نشر الصّحف يوم القيامة تشبه بطريقة أو بأخرى صورة نشر الطائر لجناحيه وفرشهما من الداخل إلى الخارج، من الحيّز الضيّق إلى المكان المطلق، وما قد يصاحبه من دفع للهواء حاملاً معه التباشير بنتيجة العمل الدنيويّ، إن خيراً وإن شرّاً. ويلاحظ هنا أنّ بنية (الطّائر) **بدلالتها على الذات**، تثنى، وتُجمع، تؤنّث، وتُذكّر؛ فتقول(26): طائرتان، طيور، طير، طائرات، طائرة.

أمّا بنية (الطذائر) **بدلالتها على العمل**، فتبقى مفردة، لا تُثنّى ولا تُجمع؛ إذ أغنت (كلّ) بانضواء كلّ إنسان ضمن اختبار العمل– إن خيراً أو شرّاً– عن ذلك.

3– **الوجه**(27):

الوجه: المركّب فيه العينان من كل الحيوان، معروف. والوجه: أول الشيء وصدره. ومنه قوله تعالى: {وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آَمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آَخِرَهُ}(28) أي أول النهار.

والوجه: القصد بالفعل. من ذلك قوله تعالى جدّه: (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ...) (29) معناه: من يقصد بفعله إلى الله. ومنه {وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ}(30)، أي وجّهت قصدي بصلاتي وعملي. أما قوله جلّ ثناؤه: {هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}(31) فالمراد به كلّ شيء إلا إياه.

ورد اللّفظ المشترك **(وجه)** في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، على وزن (فَعْل) وهو ثلاثيّ مجرّد، مذكّر، مفرد، صحيح الآخر، وهو اسم جنس جامد، دلّ في بعض المواضع على الذّات، وفي أخرى على المعنى. وقد اختلف المفسّرون في معناه بين موضع وآخر حسب السياق وسأتناول منها ثلاث صور:

الصورة الأولى: (**وجه النّهار**):

بالنّصب على الظرفيّة الزمانيّة ومعناه كما عند أبي حيّان وغيره(32) "أظهِروا الإيمان بما أُنزل على المسلمين أول النهار". وسميّ أوّل النهار وجهاً له؛ لأنه أحسنه، وأوّل ما يواجه النّاظر، فيراه منه، كما يُقال لأول الثوب: وجهه(33).

وقد أوحى الاهتزاز المرافق لصوت الهاء(34) بذلك الاضطراب والتّوتر والقلق عند أولئك المنافقين في نفاقهم القوليّ والفعليّ والذي يبدأ منذ لحظات الصباح الأولى مع نداء الفجر، وينتهي مع غياب خيوط الشمس، لتبقى حقيقة نفوسهم المظلمة كظلمة الليل مستوعباً المكان والزمان.

الصورة الثانية: (**من أسلم وجهه للّه وهو محسن**)

خرج (وجه) هنا من دلالته على الذّات إلى دلالته على المعنى وهو (العمل) فيكون معنى الآية (35): "من سلّم أمره إلى الله" وأخلص عمله لله، فله أجره عند ربّه. وقد انسجمت الدّلالة على معنى العمل مع دلالة الفعل اللازم "سَلِمَ" الذي أصبح متعدّيا بالهمزة (أسلم) بما تحمله الهمزة (36) بقوّة صوتها من معنى البروز والحضور، وهي بذلك أقوى من التضعيف فيما لو كانت (ومن سلَّمَ وجهَه)؛ ففي التّضعيف معنى التّكثير، أما الهمزة مع سياق الشرط فحملت معنى المجاهدة المستمرة في المستقبل، وهي مجاهدة ممكنة تحتاج إحساناً، كما حملت معنى القطع، وهو مناسب للسّياق المتطلّب الانقطاع عمّا سبق من أمور الضّلال.

(ISSN : 2536 - 9555)

وقد علّل أبو حيّان(37) اختيار الوجه للتعبير عن الإسلام دون سائر الجوارح؛ لأنّه أكرم أعضاء ابن آدم وجوارحه، وهو أعظمها عليه حرمة وحقّاً، فإذا خضع لشيء وجهه الذي هو أكرم أجزاء جسده عليه، فغيره من أجزاء جسده الأخرى أحرى أن يكون أخضع له. لكنّه خرج من دلالته على ذات الوجه إلى معنى التّذلل لطاعته والإذعان لأمره؛ إذ أصل الإسلام، الاستسلام؛ لأنّه من استسلمت لأمره؛ وهو الخضوع لأمره، وهو مناسب لأساليب العرب؛ فربّما عبّروا عن استسلام المرء وخضوعه بخضوع الأنف، وهو بعض الوجه؛ فيقولون: رغم أنف فلان.

ومنه آية 79 الأنعام: (وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) أي وجّهت قصدي بصلاتي وعملي.

الصورة الثالثة: (**كلّ شيء هالكٌ إلا وجهه**):

يرى بعض المفسّرين أنّ الآية تحتمل معنيين، أحدهما(38): الذّات الإلهيّة، فيكون معناها: كلّ شيء هالك إلّا هو". وقد عُبّر عن الذّات بالوجه بما تحمله من معاني الجلال والبهاء. وعلى هذا التأويل تكون البنية الصرفيّة لـ وجه: اسم جنس جامد دالّ على ذات، وقد لعب تركيب الجملة الاسمية في ترسيخ معنى الخلود لذاته العليّة؛ وذلك باستخدام "كلّ" بدلالتها على الشموليّة، واسم الفاعل "هالك" بدلالته على معنى ثبوت الفناء للمخلوقات، وبالتالي البقاء والدّوام لذاته عزّ وجلّ.

والثّاني(39): ما أُريد به وجهه؛ أي ما يُقصد إليه بالقربة، فيكون ثمّة كلام مقدّر في الذهن، لم يُذكر ليترك المجال لتزاحم المعاني.

المطلب الثّاني

أثر البنية الصّرفيّة للمشترك في الأفعال

سبق الحديث عن الاسم وإفادته الثبوت، وهنا ينتقل الحديث إلى الفعل وإفادته التّجدّد والحدوث. فقولنا: (زيدٌ قائم) يختلف عنه قولنا: (زيدٌ يقوم) ففي الأولى نلحظ ثبوت صفة القيام في صاحبها، أما في الثّانية فنلحظ دلالتها على حدوث القيام وتجدّده في الزمن.

جاء في نهاية الإيجاز للفخر الرازي(40): (الاسم له دلالة على الحقيقة دون زمانها، فإذا قلت: (زيد منطلق) لم يفد إلا إسنادَ الانطلاق إلى زيد. وأمّا الفعلُ فله دلالة على الحقيقة وزمانها؛ فإذا قلت: (انطلق زيد) أفاد ثبوت الانطلاق في زمان معيّن لزيد، وكلّ ماكان زمانيّاً فهو متغيّر، والتّغيّر مشعرٌ بالتّجدّد؛ فإذن الإخبار بالفعل يفيد وراء أصل الثبوت كون الثابت في التّجدّد، والاسم لايقتضي ذلك).

وللوقوف على دور البنية الصّرفيّة للأفعال المشتركة في التّعبير القرآنيّ، اخترت ثلاثة مواضع:

الموضع الأول:

(أُحْصِرْتُمْ) في قوله تعالى: (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ .....)(41).

وهو من المواضع التي أثارت ذائقة العلماء والفقهاء، فاجتهدوا في تفسيرها واستنباط الأحكام الفقهيّة بناء على معناها اللغوي، فأصل الكلمة من الحبس، لكن ورد لها في معاجمنا اللغويّة معنيان؛ إذ هي من المشترك اللفظي ففي الصحاح(42).

(حُصر الرجل وأُحصر، على ما لم يسمّ فاعله. قال ابن السكّيت: أحصره المرض، إذا منعه من السفر أو من حاجة يريدها. وقال الأخفش: حصرت الرجل فهو محصور، أي: حبسته. قال: وأحصرني بولي وأحصرني مرضي، أي جعلني أحصر نفسي..). على هذين المعنيين، إما أن يكون الفعل ثلاثيّاً مجرّداً، أو ثلاثيّاً مزيداً، وقد أشار سيبويه(43) في كتابه إلى اتّحاد المعنى لصيغتي فعَلتُ وأفعلتُ، وقد خصّص العلماء كتباً لـ فعل وأفعل بمعنى واحد.

ولنبدأ بالفعل "**حصَرَ يحصُرُ**" وهو فعل ثلاثيّ مجرّد، صحيح سالم، متعدّ، من الباب الأوّل(44) الذي يدلّ على التّلبس بالحال الفعلية في الزمن المستمر إلى المستقبل؛ لأنه وقع في سياق الشّرط، بالإضافة إلى معنى التّفوّق؛ فالمُحصِرُ تفوّق على المُحْصَر وعلا عليه ومنعه من أداء نسكه. بذلك قد يكون المعنى أقوى وأوضح

(ISSN : 2536 - 9555)

في الآية لو رجّحنا أن الحاجّ قد حُصِر من العدوّ؛ لأن الغلبة المادّية معه، كيف لا! والحاج قد أتى بيت ربّه ملبّياً، مجرّداً من السلاح.

أمّا الفعل المزيد "**أحصَر يحصُرُ**" فقد منحته الهمزة الزائدة زيادة بالمبنى فأصبح رباعيّاً، وزيادة في المعنى؛ أي إن حمَلَكم المرض على ألّا تتمّوا حجّكم فما استيسر من الهدي، فيكون دور الهمزة حملُ معنى صيغة الفعل المبني للمجهول على أن يكون فاعلها هو المرض ممّا لا يملك الإنسان دفعه، والمصدر منه "إحصاراً".

على هذا يكون الفعل (**حُصرتم**) (فُعِلتُم) فعلٌ ثلاثيّ مجرّد، وهو متعدٍّ، المصدر منه "حصراً" فيه معنى توكيد الحدث الذي يكون من العدوّ الّذي يتعمّد الإضرار بالمحصَر.

أمّا الفعل (**أُحصرتُم**) (أُفعلتم) فهو ثلاثيّ مزيدٌ، المصدر منه إحصاراً، ويحمل معنى توكيد الحدث ثمّ يكون من المريض استجابة؛ أي إن منعكم أو حبسكم المرض، فأَحْصَرْتُم أنفسَكم شفقةً عليها ورحمةً بها، فما استيسر من الهدي. والله أعلم.

ومن المعلوم أن الفعل المبنيّ للمجهول لا مصدرَ له مخصوص، بل هو كالمبني للمعلوم ومصدرهما واحد(45). والحدث المجهول مُحدثه قد يترك المجال مفتوحاً للمعاني، من هنا كانت همزة التّعدية مع صيغة البناء للمجهول قد تركت المجال رحباً لاجتهاد الفقهاء في تحديد الفاعل الحقيقيّ، وبناء الحكم الفقهيّ وفق ذلك بما لا يتعارض مع القواعد الأصوليّة، فبسطوا القول وأطالوا في شرح ما يتعلّق بالحكم الفقهيّ. ففي كلّ موسم حجّ قد يتعرّض الحاجّ للإحصار بمعناه المفتوح، بسبب خارج عن إرادته، سواء أكان المانع بشرياً وهو (العدوّ) أم معنويّاً، وهو (المرض).

إذن اختلاف البنية الصرفيّة للفعل فتح الباب للاجتهادات الفقهيّة، ولكلّ فقيه حجّته من اللغة، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على سعة اللغة العربية ممثّلة في بنيتها الصّرفيّة.

الموضع الثاني

1- (جعل) (46).

بمعنى عمل وخلق: ومنه {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} (47).

وبمعنى صير: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} (48).

وبمعنى سمّى {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا} (49)؛ أي سموهم، وذلك قولهم: الملائكة بنات الله تعالى الله.

وبمعنى ألقى: {وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ} (50).

ورد الفعل جعل في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، وهو من الأفعال المشتركة التي تحمل أكثر من معنى في سياقها القرآني: عمل وخلق، صير، سمى، ألقى. وهو فعل متعدٍّ إلى مفعول واحد، وإلى مفعولين.

ويرى الزمخشريّ أن الفعل إذا كان بمعنى (أحدث وأنشأ) تعدّى لمفعول به واحد، وإذا كان بمعنى (صيّر) تعدّى لمفعولين.

يقول مفرّقاً بين الخلق والجعل(51) (إنّ الخلق فيه معنى التّقدير، وفي الجعل معنى التّضمين؛ كإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئاً، أو نقله من مكان إلى مكان...).

من خلال المواضع الأربعة التي ورد فيها الفعل (جعل) سنخلص إلى معانٍ اتّفق عليها علماء اللغة والتّفسير، تدلّ بطريقة أو أخرى على سعة لغتنا وحملها أوجهاً يظنّ الجاهل باللغة أنها من التناقض.

الموضع الأول: {**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**}

الفعل (جعل) هنا أُسند إلى الله تعالى وهو بصيغة الزمن الماضيّ، ونراه يحمل معنى الإيجاد والخلق من العدم، وقد عُطف على (خلق) السابقة لها {خلق السموات والأرض}، وتكرّرت ثالثة في {خلقكم من طين} للتأكيد على قدرته وعلوّه وامتنانه.

(ISSN : 2536 - 9555)

ولو وقفنا عند البنية الصرفيّة لـ جعل لوجدناها على وزن (فَعَلَ) فهو ثلاثي مجرّد، صحيح سالم، متعدٍّ، مبنيّ للمعلوم، يدلّ على الحدث الحقيقيّ الذي وقع في الزّمن الماضي، وهو خلقُ السموات والأرض، وجعلُ الظلمات والنور... وهو من الباب الثالث (جعَلَ يجعَلُ) الذي يحمل معنى التّغلّب والانشراح(52).

الموضع الثاني: {**وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا**}

في هذا الموضع أُسند الفعل إلى البشر (وجعلوا) ونراه يحمل معنى الادّعاء والتّسمية، لا الإيجاد من العدم؛ أي إن الكافرين يطلقون كلمات جوفاء صوت حروفها قوي كالطبل الأجوف؛ صوته يزعج العقلاء، ويسعدُ السّذج من النّاس فيتراقصون ويتمايلون، لكنها في الحقيقة مجرّد كلمات تحمل بين طيّات حروفها معاني العجز عن الفعل، وتزداد الصورة وضوحاً حين نلمح في الآيات السابقة الفعل (جعل) مسنداً إلى الله متناغماً مع الفعل (خلق) حاملَين معنى الإيجاد من العدم.

الموضع الثالث: {**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**}

نقف في هذا الموضع على صيغة اسم الفاعل (جاعلك) من الفعل "جعل" على وزن: (فاعِلُك)، وهو ثلاثيّ مزيد بحرف واحد هو الألف، وقع بين حرفين قويين هما الجيم والعين، وهذه الزّيادة تحمل معنى التّمكين والثبوت والرّسوخ لإبراهيم عليه السلام؛ إذ كانت الإمامة تكريماً له. يقول الطبريّ(53): (إنّي مصيّرك للناس إماماً، يؤتمّ به، ويُقتدى به، ...).

الموضع الرّابع: {**وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ**}

ورد الفعل في هذا الموضع بصيغة المضارع (يجْعَلُ يفْعَلُ)، التي تدلّ على التّجدد والاستمرار، ولم تُستخدم صيغة الماضي؛ لأنّ حمل الكفار بعضهم على بعض مستمر إلى ما لا نهاية، كما لم تُستخدم صيغة اسم الفاعل (جاعل) مع قوّة دلالته؛ لأنه يحمل معنى الثّبوت، وبذلك قد تضعف دلالة الصورة التي تشير إلى استمرار حمل الخبيث حتى يكثروا كالرّكام، ثم يُجعلون في جهنّم جميعاً.

3- **لامستم**:

قال تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ **لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ** فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا)(54).

نقف في هذا الموضع على فعل اُختلف في قراءته، إذ ورد فيه قراءتان: (لامستم ولمستم)؛ والأولى قراءة أهل المدينة وبعض البصريين والكوفيين، والثانية هي قراءة عامّة الكوفيين.

وعليه اختلفوا في المراد من قوله تعالى: (أو لامستم النساء)، بقراءتي: لمستم ولامستم، والاسم هنا تطلقه العرب مرّة على اللمس باليد، ومرة تكنّي به عن الجّماع، قال أهل اللغة(55): (اللّمس يكون باليد وبغيرها، وقد يكون بالجماع).

فالفعل **(لمس)** على وزن فعَلَ. ثلاثي مجرّد، صحيح سالم، مبنيّ للمعلوم، متصرّف، متعدّ. فيكون اللّمس بهذا متوجّهاً من أحد الطرفين إلى الآخر؛ كأن يمسّ الزّوج يد زوجته أو يقبّلها. وقد ورد في الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان يتوضأ ثم يقبّل، ثمّ يصلّي ولايتوضّأ(1)، وقد تكون كناية عن الجّماع.

أمّا **(لامستم)** فعلى وزن (فاعلتم)، وهو ثلاثيّ مزيد بحرف الألف بين الفاء والعين، وتدلّ الصيغة هنا على "المشاركة" و"معنى فعَل".

قال سيبويه: (اعلم أنك إذا قلت: (فاعلتُه) فقد كان من غيرك إليك مثل ما كان منك إليه حيث قلت (فاعلته) ومثل هذا "ضاربته")(56) أي إننا ننسب للبادئ الفاعلية، وللمقابل نسبة المفعولية. فالصّيغة الصّرفية إذن، هي التي اقتضت معنى المشاركة بين الطّرفين، وبالتالي فإنّ الملامسة– كما أشار بعض الفقهاء– (57) إذا وقعت بين اثنين أفضت إلى معنى الجماع، ويلعب صوت حرف السّين دوراً في الدّلالة على الحركة والطلب(58)، موحياً بإحساس لمسيّ ماتع، تتحرّك معه المشاعر السمعيّة والبصريّة.

وأشير هنا إلى أن الفعل (لمسَ) يأتي مضارعه من الباب الأول (يلمُسُ)، ومن الباب الثالث (يلمَسُ)، ربّما لو حاول أحدنا الولوج إلى عالم الأبواب الصرفية، وحاول

(ISSN : 2536 - 9555)

استكشاف دلالاتها العميقة، لأتى بشيء جديد، مع الإشارة إلى أنّ محاولة العلايلي(59) للحديث عنها تحتاج إلى مزيد بحث.

الخاتمة ونتائج البحث

المشترك اللفظي بحرٌ زاخرٌ يموج بالدّلالات والمعاني، وكلّما خاض موجه باحث وجد فيه من الدّرر الشيء الكثير، وقد توصّل البحث إلى نتائج منها:

1- المشترك اللفظي من الأبواب التي يحسن عدم إنكارها لدوره في تنوّع المعاني ودلالاتها.
2- تلعب البنية الصرفية للمشترك دوراً في تقريب الفهم للآيات التي ورد قيها المشترك ممّا يتّفق مع شروح المتقدّمين.
3- لصوت الحرف في المشترك اللفظيّ أثر في توضيح المعنى وترسيخه.
4- الأبواب الصرفية للفعل الثلاثيّ تسهم إلى حدّ ما في توجيه معاني الأفعال وبالتّالي معنى الآية، وما يترتّب على ذلك من اختلاف في الأحكام.

التوصيات:

1- الاهتمام بالبنية الصّرفيّة في الدّراسات البينية لما لها من دور لا يمكن تجاهله.
2- التّوسع في دراسة البنية الصّرفيّة للمشترك لتعمّ جميع المواضع من القرآن الكريم.
3- دراسة البنية الصّرفيّة للمشترك في الحديث النبويّ الشّريف، وأشعار العرب.
4- استقصاء المشترك اللفظيّ في المعاجم اللغويّة؛ لتدارك ما فات من كلمات في كتب اللغة الخاصّة بالمشترك.
5- الاهتمام بالأبواب الصّرفيّة ومعانيها ومحاولة استقصاء معاني الأفعال المنضوية تحتها.

فهرس الحواشي

1. البحر المحيط 36/1.
2. المشترك اللفظي في اللغة العربية، ص99.
3. الكتاب 15/1.
4. المحكم والمحيط الأعظم 426/6. التعريفات ص93.
5. المشترك اللفظى نظريا وتطبيقا, ص28.
6. صبحي الصالح ص302.
7. كشف الأسرار 60/1.
8. انظر مقدمة التفسير للراغب الأصفهائي ص3، وانظر المشترك اللفظي في اللغة العربية ص91.
9. المناهج الكافية في شرح الشافية ص131.
10. الاشتقاق: "نزع لفظٍ مِن آخرَ، بشرط مناسبتهما معنًى وتركيبًا، ومغايرتهما في الصيغة". التعريفات ص18.
11. التعريفات ص10.
12. الأمالى الشجريّة ص385.
13. القمر 8.
14. المعارج 36.
15. انظر البحر المحيط 82/20.
16. مقاييس اللغة ص938.
17. انظر خصائص الحروف العربية ومعانيها ص160، 199،221.
18. انظر الكشاف 462/4، مختصر ابن كثير446/3.
19. الأمالي الشجريّة ص473-474.
20. الأنعام 38.
21. سبأ 10،19.
22. الإسراء 13.
23. انظر الكشاف 18/2، والبحر المحيط141/9.
24. البحر المحيط 32/14.
25. انظر خصائص الحروف العربية ومعانيها ص191.
26. القاموس المحيط 1028.
27. الأمالي الشجريّة 472.
28. آل عمران 72.
29. البقرة 112.

(ISSN : 2536 - 9555)

30. الرحمن 27.
31. الرحمن 78.
32. البحر المحيط 464/5.
33. القاموس المحيط 1734.
34. انظر خصائص الحروف العربية ومعانيها ص193.
35. انظر البحر المحيط 464/5، الصحاح 556.
36. انظر خصائص الحروف العربية ومعانيها ص95.
37. البحر المحيط 433/2.
38. البحر المحيط 88/17.
39. البحر المحيط 88/17-89.
40. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي ص84.
41. البقرة 192.
42. الصحاح 256.
43. الكتاب 61/4.
44. تهذيب المقدّمة اللغويّة ص90.
45. انظر نزهة الطرف 337.
46. الأمالي الشجريّة ص266.
47. الأنعام 1.
48. البقرة 124.
49. الزخرف 19.
50. الأنفال 37.
51. الكشاف 5/2.
52. تهذيب المقدّمة اللغويّة ص91.
53. جامع البيان 18/2.
54. النساء 43.
55. الصحاح 1045.
56. الكتاب 68/4.
57. أحكام القرآن 50/3، تفسير ابن كثير 317/1.
58. انظر خصائص الحروف العربية ومعانيها ص112.
59. تهذيب المقدّمة اللغويّة.

فهرس المصادر والمراجع

1- أحكام القرآن، محمد الطبري المعروف بالكيا الهراسي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط2، 1985م.
2- الأمالي الشجريّة، ابن الشجري، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت. دت.
3- البحر المحيط، أثير الدين أبي حيّان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان الغرناطيّ الأندلسيّ، دار الرّسالة العلميّة، ط1.
4- التعريفات، عليّ بن محمد علي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، ط4، 1998م.
5- تهذيب المقدّمة اللغويّة، العلايلي، د.أسعد أحمد علي، دار السؤال للطباعة والنشر بدمشق، ط3، 1985م.
6- جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000م.
7- خصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن عبّاس، منشورات اتحاد الكتاب العربي، 1998م.
8- دراسات في فقه اللغة، د. صبحي إبراهيم الصالح، دار العلم للملايين، ط1، 1960م.
9- الصحاح، أبو نصر إسماعيل الجوهري، ت د. محمد محمد تامر، دار الحديث، القاهرة، 2008م.
10- الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988.
11- كشف الأسرار شرح أصول البزدوي، المكتبة الشاملة الحديثة.
12- الكشاف، الزمخشري، دار الكتاب العربي، 2012.
13- المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، تحقيق عبد الحميد هنداوي، 2000م.
14- مختصر ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، المكتبة العصرية، لبنان، 2010.

(ISSN : 2536 - 9555)

15- مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، راجعه أنس محمد الشامي، دار الحديث، القاهرة، 2008م.

16- مقدمة التفسير للراغب الأصفهائي، تحقيق د. محمد عبد العزيز بسيوني، ط1، 1999م.

17- المشترك اللفظي في اللغة العربية، د. عبد الكريم شديد محمد، مركز البحوث والدراسات الإسلاميّة، 2007م.

18- المشترك اللفظي نظريا وتطبيقا، دكتور توفيق محمد شاهين, مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1980م.

19- المناهج الكافية في شرح الشافية، للشيخ زكريا الأنصاري، تحقيق د.رزان خدّام، سلسلة إصدارات الحكمة، ط1، 2003م.

20- نزهة الطرف في علم الصّرف، الميداني، دراسة د. يسريّة محمد إبراهيم حسن، المكتبة الزهرية للتراث.

21- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز. فخر الدين محمد بن عمر الرازي، دار صادر، بيروت. ط1، 2004م.